# التعريف والنقد

## ديوجين الحكيم

مسرحية شعرية

الدكتور عبد الكريم اليافي

الشاعر عدنان مردم بك على شبابه من رعيل الشعراء المجيدين الذين يحسنون فن القريض الموزون ببحور الفراهيدي طبعاً وسليقة ، ويلتزمون نحو سيبويه علماً واطلاعاً ، ويتداولون مفردات الفيروزابادي ثقافة وإلماماً ولكنها مفردات قريبة سهلة واضحة لا لبس فيها ولا التواء ولا إبهام . وهو قادر أن يصوّر هواجس الخواطر ويعرب عن بنات الصدور ويترجم بالتعبير الدقيق خفايا الاشارات .

وهو سليل أسرة شعر وأدب وعلم ، والده الشاعر الأديب الكبير المرحوم خليل مردم بك رأس مجمع اللغة العربية بدمشق حقبة من الزمان . وابنه عدنان وفيٌّ لشمائل أسرته ولذكرى والده . وقد نشأ على محبة الشعر والأدب ثم انقطع لهما . آثاره الشعرية حتى الآن كثيرة . نشر أول الأمر ديوانين الأول « نجوى » سنة ١٩٥٦ والثاني « صفحة ذكرى » سنة



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٩٦١ . ثم نشر « دراما » شعرية هي « غادة أفاميا » سنة ١٩٦٧ . ثم توفر على كتابة المسرحيات الشعرية ، فظهر له حتى الآن « العباسة » و « الملكة زنوبيا » و « عبير من دمشق » و « الحلاج » و « رابعة العدوية » و « مصرع غرناطة » و « فلسطين الثائرة » و « فاجعة مايرلنغ » تلاحقت عاماً بعد عام كحبات الدرّ المتألقة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٥ . ومن المناسب هنا أن نشير إلى أن رابعة العدوية نالت في أسبوع الكتاب الصوفي العالمي عام ١٩٧٢ من اللجنة الاستشارية العالمية ومن اليونسكو الجائزة العالمية الثالثة ومنح الشاعر لقب أستاذ ، « بروفسور » .

في هذا الموسم الربيعي من سنة ١٩٧٧ ظهرت له مع مواكب زينات الربيع مسرحية « ديوجين الحكيم » من منشورات مؤسسة الرسالة وهي التي تؤلف موضوع بحثنا النقدي .

سمعنا كلنا بديوجين الحكيم اليوناني الذي عاش من ٤١٣ إلى ٣٢٣ ق.م وهو أفضل من يمثل زمرة الحكماء الكلبيين . وهؤلاء يؤلفون إحدى المدارس السقراطية التي انتبهت لحياة سقراط وتقشفه وسار أفرادها على نهجه في السلوك . وقد شاعت أخبار ديوجين ونوادره وغرابة أطواره . ويذكرنا المؤلف بجملة حياته في مقدمة وجيزة . فهو الذي « عاش عمره وليس يملك من دنياه سوى عصا غليظة وعباءة خشنة يستر بها جسمه وقدح خشبي يشرب به . وقيل إنه لما شاهد مرة طفلاً يغترف بكفيه من النهر حطم قدحه قائلاً : الأطفال أشد معرفة مني بالأشياء الواجب التخلي عنها » .

تتضح لنا سيرة ديوجين المتقشفة الصارمة حين نرجع إلى تاريخ آثينة السياسي والاجتماعي لما دبّ الفساد في حياة يونان واستطاع فيليب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المقدوني أن يكتسح بلادهم دون كبير مقاومة إذ كان قد اشترى ضمائر رجال السياسة بالمال . ولما مات الملك فيليب ظن الشعب أنه يتنفس الصعداء – على حد تعبير صاحب المسرحية « ولكن ابنه الاسكندر الكبير هاجمهم ثانية وقضى على استقلالهم . شهد ديوجين تلك المأساة الأخلاقية التي تفشّت في نفوس رجال الفكر والسياسة ، وهاله هذا التردي في مطاوي الفساد ، فأنكر على قومه رجولتهم ، وراح يتحداهم بقوله لكل من كان يسأله عن سبب حمله الفانوس في وضح النهار بأنه يبحث عن الرجل » .

أليست هذه الفترة الزمنية في حياة ذلك الشعب الأصيل الذي تفوّق في ضروب المعارف ورقي درجات عالية في سماء المعالي جديرة أن توحي بألوان التأمل وصنوف العظات إلى شاعر يمتاز بالإحساس العميق والقومية الصلبة والأخلاق المتينة فيكتب مسرحية تمثل بعض صور تلك الحياة المتداعية وتبرز ما كان يساور أفكار أبناء الشعب من تمرد على الحكم وثورة بالغاصبين، ويتخذ من ذلك رموزاً اقتفى في اعتمادها آثار والده العبقري حين قال في قصيدة له مشهورة :

أرى الكنانة تشقى في مواطنها والرمز أبلغ من شرح وإيضاح ؟

فهذه المسرحية تصور مأساة كل شعب مغلوب على أمره كما تصور المشاعر الشريفة التي تختلج في نفوس أفراد الشعب من كره للاستبداد وثورة بالاستعباد .

وكم نشهد ، بعد أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً ، كيف تتكرر المأساة لدى عدد كبير من الشعوب ولا سيما شعوب البلاد النامية التي تنهض لتدفع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عنها أثقال التاريخ وتحطم أغلال العبودية والاستعمار وتبني أركان قوميات إنسانية كريمة جديدة .

* * *

تتألف المسرحية من أربعة فصول ويتألف كل فصل من عدة مشاهد . ففي الفصل الأول يتهامس فريق من شعب يونان منددين بالوضع الحاضر ويتداعون لدفع كابوس الاستبداد .

إن الشـــقاوة أن نعيـ ش مـ ع الشقاوة أعبدا
والعار في غض الجفو ن على القذى حذر العدى

ويتضمن هذا التهامس تشجيعاً على الثورة كما في البيتين الآ نفين أو حثاً على الأناة والصبر وتحيّناً للفرص المواتية حقناً للدماء أن تراق عبثاً أو تنويهاً بمآثر الشعب اليوناني الذي لا يستحق أن يضام :

مجد أفاء على الورى بخمائـــل وجداول
وحضارة كالبحر لي س لبحرها من ساحل

ويموت فيليب ملك مقدونية فيستبشر الشعب بالخلاص القريب ويظنها فرصة سانحة للثورة ، إلا أن بعض العقلاء ينبّه على بأس الاسكندر ابنه وخليفته في الحكم :

إن مات فيليب المغيـ ر فـــلم يمت إسكندر
مـــاذا تغيّر والأذى يغشى وفينـــا يأمـــر
الحزم أن تتبصـــروا ريثاً وأن تتـــدبروا

ولكن مشاعر الحرية التي كانت تتوقد في الصدور كانت أقوى من احتمال ضيم الاحتلال والعبودية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إني لأربأ بالرجو لةأن تذل وتخنعا ..
تأبى الرجولة أن نغ ضّ على القذى أو نخضعا
جبن الذليل أحاله حملاً وديعاً طيّعا

نعم في كل شعب من يبيع نفسه من الحاكم . ولكن هؤلاء نزر قليل . ومع ذلك فلكل امرىء رأيه واجتهاده :

إن كان فينا واحد يشرى فليس الكل يشرى
وتخالف الآراء لي س بمفسد للودّ أمرا

وبين هؤلاء المتناصرين المتداعين للثورة يبزغ هوى يربط بين هيلانة التي يعمر قلبها حب بلادها وزينو الشاب الثائر المتحمس الذي يحسب الصبح قد انبلج في موت فيليب ، فيهب هو وأنصاره بالشعب للقضاء على الحكم الفاسد المستبد . وينتهي الفصل الأول بالتعاهد على إشعال نيران الثورة .

ويستهلّ الفصل الثاني بحوار بطل القصة ديوجين لنفسه وتلمّحه مظانّ الناس المتوزعة في سلوكه . ثم نسمع تخوّف الناس من بأس الاسكندر وبطشه . ومع ذلك فإن ديوجين يظل يناجي نفسه مناجاة مرّة إذ يبحث عن الرجل كل الرجل الذي يستطيع أن يقف إزاء الاسكندر على صعيد صلب من الكرامة والعفة والعزم القوي والعبقرية ليحرر بلاده فلا يجد له أثراً . لذلك نراه يحمل فانوسه في بياض النهار يبحث عن ذلك الإنسان الحقيقي كأنه يريد في الواقع أن يشحذ عزائم الناس ويثير في نفوسهم مكامن الرجولة والعزة حين استفحل شأن الاسكندر وتخاذل الناس أمامه .

ونجد في هذا الفصل نفسه ديوجين يعرب عن رأيه في تردى الأحوال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفسادها ويردّهما تصريحاً وتلميحاً إلى فساد الأخلاق وتدنّي الضمائر . فإذا استشير أجاب :

الصمت أجــدر بالفتى إن كان لا يجدي الكلام
مــاذا أقول وكلنا متبــعٌ يلذّ له الحرام
مات الضمير فليس ثمّ بنـا ضمير أو ذمـــام
والناس عن هول المصيـ بة في أسرّتهـم نيـــام
مأساتنـــا كالبحر في سعة يواكبهـــا الظلام
حسـبي الكناية فالكلا م اليوم من شجن ضرام
إن مات في الشعب الضمير ر فمـــا لعثرته قيـــام

ويقول أيضاً :

ما كان نفـع حضارة إن جردت عنها الفضيله
ومردّ كل مصيبـة تعزى لأنفسنـا العليـله

وتتابع في الفصل الثالث أحاديث الشُرَط الذين جُنّدوا من الشعب اليوناني نفسه وقد كلفوا ضبط الأمن والقبض على الوطنيين وهم إن شعروا بوخز ضمـــائرهم لا يمنعهم ذلك من اقتحام مأوى لأولئك الوطنيين كانوا متجمعين فيه للتشاور في درء اجتياح الاسكندر لبلادهم قبل اصطلامه منابت الثورة فيها .

ويرينا الفصل الرابع معالم الزينة في كل مكان من آثينة احتفـالاً مفروضاً على الآثينيين بانتصار الاسكندر . وفي ظلال الزينة نعود فنسمع منصتين إلى ما يسرّه أفراد الشعب بعضهم إلى بعض من أهوال المصيبـة الداهمة ، ومن أن هذه الكارثة إن تكشّف فيها قناع الخيـانة فإن جذورها تكمن في موت الضمير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي الفصل نفسه نجد ديوجين منسجماً مع مذهب فلسفته الكلبية يعلي من شأن الكلاب وينوه بأمانتها ووفائها ودفاعها عن حماها ورهبة جانبها وصبرها على التقشف على خلاف الإنسان الذي قد يغدر بالأصحاب والأقارب .

إن شهرة ديوجين قد تجاوزت يونان وبلغت مسامع الاسكندر ، لذلك لاعجب أن تنتجعه فئة تطلب إليه أن يشفع لها عند هذا الفاتح الكبير ونجد هنا هيلانة تتضرع إليه لعله يستطيع أن يحمي حبيبها زينو الذي قُبِض عليه ، ولكن كبرياء ديوجين تأبى عليه أن يمد يد المستكين أو يطأطىء جبهة المستسلم للفاتح المستبد ، وهو الذي عرف ببالغ تقشفه وقوة نفسه ورباطة جأشه .

وهاهو ذا في الختام يحمل فانوسه ويغادر مكانه مفتشاً عن الرجل

تبدو هذه المسرحية بسيطة موزونة العناصر بسيطة الحوادث على فداحة الصروف التي أحاطت بها . وهي إلى ذلك حافلة بالخوالج النفسية والروادع الخلقية والملاحظات السياسية . فهي في حقيقة الأمر مسرحية نفسية اجتماعية سياسية ، عمد مؤلفها إلى حياة فيلسوف اشتهر بسلوكه الغريب وتجشمه الصعاب وتجرده من شتى الرغاب في عهد بدأت تتقوض فيه دعائم السيادة اليونانية وتأفل شمس مجدها حين تهافت أبناؤها على سفاسف العيش وماتت ضمائرهم وتخاذلت رجولتهم .

ولا تخفى على قارىء المسرحية تباريح الألم الدفين الذي يساور نفس مؤلفها غيرة منه على مجد العرب الذي كان أكبر من مجد اليونان وحسرة على تمزقهم في هذه الصروف العالمية تلقاء قوى متغطرسة متعددة أشد كيداً وأدهى لؤماً من قوة الاسكندر المقدوني . وهكذا تتضح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مأساة الشعب اليوناني في ظل العبودية وذل الاستبداد وتنجلي أكثر فأكثر في هذا العصر العصيب .

وكما تفصح قطرة العطر عن مضمون أشذاء الألوف من الأزهـــار والرياحين ، كذلك تتضح فحوى المسرحية ، ولكنها هذه المرّة مرّة متشائمة مملوءة بالأشواك الناجعة ، وأكثر الأدوية مرّ ، في إهداء مؤلفها عند مستهل الصفحات الأولى « إلى روح الحكيم ديوجين الذي ظلّ يبحث عن الرجل جاهداً عمره في وضح النهار وهو يحمل فانوسه ولم يوفق بالعثور عليه » .

عبد الكريم اليافي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net